الحياة الطيّبة
السنة ١٦
العدد ٢٧
شتاء - ربيع ٢٠١٣ م
ملف أبحاث ودراسات

ملامح التجديد في المنهج التفسيري عند الإمام الخميني قدس سره
- على ضوء محورية المقاصد القرآنية -

الدكتور الشيخ علي جابر[1]

مدخل:

إنّ جانب المفسِّر في شخصية الإمام قدس سره وفهمه للقرآن - على أهمّيّته - قد خفي على كثير من الباحثين وحُجِبَ عنهم، بفعل عدّة عوامل، أهمّها:

بروز البعد الجهادي والقيادي والمعنوي في حياة الإمام قدس سره، والنظر إليه، بوصفه فقيهاً قائداً، وثائراً عالمياً قدَّم خياراً ثالثاً للإنسانية أمام قطبي النزعة المادية: الليبرالية والماركسية. ويتمثّل هذا الخيار في الإسلام وفق الرؤية العرفانية للإمام قدس سره، على المستوى القيمي والروحي، ونظرية ولاية الفقيه، على مستوى الفقهي السياسي الشيعي، وما أحدثه هذا الطرح من تحوّلات تاريخية كبرى.

لم تتح الفرصة للإمام قدس سره لتقديم تفسير كامل للقرآن نتيجة للظروف التي كابدها بفعل المواجهة المريرة مع نظام الشاه، وقيادته للثورة الإسلامية في إيران، وأسباب أخرى.

إنّ الصورة النمطية عند فقهاء الشيعة هي صورة الفقيه الأصولي

(١) أستاذ في الحوزة العلمية، من لبنان.

الذي سرعان ما تشغله أعباء المرجعية والفتيا، ويصار إلى تظهير هذه الصورة – عن قصد أو عن غير قصد – لتطغى على باقي أبعاد الشخصية العلمية، فمنذ عهد شيخ الطائفة الطوسيقدس سره وإرسائه لقاعدة الاجتهاد الفقهي والفتيا ونظم الأبواب الفقهية، جرى اختصار العلم في الحوزة بصورة الفقيه على حساب الأبعاد العلمية الأخرى. وما أمكننا رصده من تفسير الإمامقدس سره هو متفرّقات جاءت وفق الآتي:

- تفسير سورة الفاتحة: وهو عبارة عن سلسلة محاضرات ودروس ألقاها الإمامقدس سره عقب انتصار الثورة الإسلامية عام ٩٧٩١م، عبر إذاعة وتلفزيون الجمهورية الإسلامية الإيرانية، عندما كان في قم المشرفة، وبلغت خمسة دروس تناول فيها البسملة فقط، لكنّها كانت كافية لبيان المنهج التفسيري للإمامقدس سره.
- تفسير سورة الفاتحة وسورة التوحيد وسورة القدر، ولكن بنحو إجمالي في كتاب (الآداب المعنوية للصلاة)[١]، وكذلك تفسير سورة التوحيد في كتاب (الأربعون حديثاً).
- تفسير مختصر للآيات الستّ في أوّل سورة الحديد في كتاب (الأربعون حديثاً).
- تفسير آية الفطرة من سورة الروم (الآية ٣٠) في كتابي (الأربعون حديثاً)[٢] و(جنود العقل والجهل)[٣].
- تفسير آخر سورة الحشر (من الآية٨١ إلى ٤٢) في رسالة إلى ولده المرحوم السيد أحمد، نُشِرت فيما بعد بعنوان (وعده ديدار)[٤].

لمحات تفسيرية للعديد من آيات القرآن جاءت في مواطن متعدّدة من

(١) الخميني، روح الله: الآداب المعنوية للصلاة، ترجمة وشرح وتعليق أحمد الفهري، ط٣، بيروت، مؤسّسة الأعلمي، ١٤٢٥هـ.ق/٢٠٠٤م.

(٢) الخميني، روح الله: الأربعون حديثاً، ط١، قم المقدّسة، مؤسّسة النشر الإسلامي، ١٤١٥هـ.ق.

(٣) الخميني، روح الله: جنود العقل والجهل، تعريب لجنة الترجمة في مؤسّسة القرى، ط١، بيروت، دار القرى، دار المحجة البيضاء، ١٤٢٤هـ.ق.

(٤) الخميني، روح الله: وعده ديداره، مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخمينيقدس سره، طهران، وزارة الإرشاد الإسلامي، لات.

كتبه ورسائله بطريقة الإمام قدس سره الخاصّة، لا تندرج في العمل التقليدي للتفسير، بوصفه وظيفة عملية محدّدة للتعامل مع القرآن الكريم، فهماً وشرحاً وتدبّراً.

انطلاقاً من ذلك، سوف نحرص في هذه المقالة على تقديم الأطر العامّة للمنهج التفسيري التجديدي الذي طرحه الإمام الخميني قدس سره، وفق محورية الكشف عن المقاصد القرآنية.

أوّلاً: تصحيح العلاقة مع القرآن الكريم:

يعتقد الإمام قدس سره أنّ البداية الصحيحة للاستفادة من القرآن الكريم هي تصحيح هذه العلاقة بوعي الرؤية الأصيلة لدور القرآن في حياة الإنسانية، خاصّة في حياة المسلمين والمؤمنين به.

«لقد أخرجوا القرآن عن الساحة، حتى كأنّه قد فقد دوره في الهداية، وبلغ الأمر أن تحوَّل القرآن بيد الحكومات الجائرة ورجال الدين الخبثاء الأسوأ من الطواغيت إلى وسيلة لإقامة الجور والفساد والتسويغ للظلمة وأعداء الحقّ تعالى. مع الأسف، بدا وكأنّه لا دور لهذا الكتاب المصيري على يد المتآمرين والأصدقاء الجاهلين إلا في المقابر ومجالس تأبين الأموات»[1].

ففي كلامه قدس سره تحذير من الاستخدام الجاهل أو السيّئ النّيّة للقرآن، بإخراجه عن موضعه الطبيعي، بوصفه كتاب هداية للبشرية، وتحويله وظيفياً إلى أداة أساسيّة لتبرير الظلم أو الفساد أو الجهل، بواسطة ثنائية: السلطان والفقيه، فالسلطان المسلم المنحرف سيسعى جاهداً للاستقواء بالقرآن الكريم، لتمكين سلطانه، وإيجاد المبرّرات والمسوِّغات لكلّ مظاهر الفساد والظلم التي تحفل بها سلطته عادة، وسيستعين ببعض رجال الدين لفعل ذلك وإحاطة نفسه بهالة من الدين والقداسة الزائفة.

(١) الخميني، روح الله: صحيفة الإمام-باللغة الفارسية-، مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني قدس سره، ١٣٧٨هـ.ش، ج٢١، ص٣٩٥.

إذن، لا بدّ من العودة الأصيلة إلى القرآن الكريم، وبناء العلاقة الصحيحة والصائبة، ليكون على نحو فعلي كتاب الهداية القويمة: ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم**﴾[١].

ثانياً: الحاجة إلى فهم القرآن:

يشير الإمام قدس سره إلى أنّنا بحاجة متجدّدة إلى فهم القرآن الكريم والوقوف على معانيه ودلالاته لأكثر من سبب ودافع:

فالقرآن يشتمل على معارف الإسلام من المبدأ إلى المعاد والمصالح الشخصية والاجتماعية، ما يستوجب البحث عن علومه. وقد نزل القرآن بطريقة غير معهودة في عرضه وبيانه لمقولته، «**لذلك تراه يعرض أحياناً بنصف سطر لبرهان ينبغي للحكماء أن يبيّنوه في عدد من المقدّمات، يفعل ذلك بصيغة غير شبيهة بالبرهان**»[٢].

ويؤكّد القرآن هذه المقولة لحاجة الناس إلى البيان واختلاف عقولهم، فيخاطب النبي صلى الله عليه وآله: ﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[٣]. وهذه حقيقة لا تنكر، وإلّا لما تفاوتت أفهام الناس في العلوم ولَمَا احتاجوا إلى التعلّم، وهي تشكّل مدخلاً طبيعياً لعلم التفسير والحاجة إليه.

معرفة مقاصد القرآن: وهو ما لا يتمّ إلا بالتدبّر والتفكّر، وقد أُمِرْنَا بذلك، فقال تعالى: ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾[٤].

«**فالمفسِّر إذا فهم المقصد من النزول فهو مفسِّر، لا سبب النزول**»[٥]. وهو ما يدفعنا بعد ذلك إلى الوقوف على المقاصد القرآنية عند الإمام قدس سره ودورها في فهم القرآن وتفسيره.

(١) الإسراء: ٩.

(٢) الخميني، روح الله: قرآن كتاب هدايت، تبيان، دفتر سيزدهم، مؤسسة تنظيم ونشر وآثار الإمام الخميني قدس سره، ١٣٧٥هـ.ش، ص٢٣-٢٤.

(٣) النحل: ٤٤.

(٤) محمد: ٢٤.

(٥) الخميني، روح الله: الآداب المعنوية للصلاة، تحقيق وتعليق السيد أحمد الفهري، ط١، دمشق، دار طلاس، ١٩٨٤م، ص٣٣٣.

المعارف العميقة في القرآن، حيث يرى الإمام قدس سره أنّ هناك نوعين من المعرفة فيه: أحدهما لعامّة الناس وطابعه عملي، أي لأجل تطبيق المعرفة، وآخر علمي يحتاج إلى فهم خاصّ وإلى نوع اختصاص في كلّ علم، مع تأكيده على أنّ معرفة القرآن لا تنحصر بالمفسِّرين، بل هي متاحة للجميع، وفق قواعد وضوابط لا تُخْرِج التفسير عن موضوعه، لأنّ المعرفة التدبّرية أمر آخر، وهي غير التفسير بالمعنى المصطلح.

إنّ هناك حقّاً لأهل التعمُّق والفكر يستشهد له الإمام قدس سره برواية الشيخ الكليني قدس سره، فيقول: «**سُئِلَ علي بن الحسين عليه السلام عن التوحيد فقال: «إنّ الله - عزّ وجلّ - علم أنّه يكون في آخر الزمان أقوام متعمِّقون، فأنزل الله تعالى: ﴿قل هو الله أحد﴾، والآيات من سورة الحديد إلى قوله: ﴿وهو عليم بذات الصدور﴾، فمن رام وراء ذلك فقد هلك**»[1]. إذن، يتّضح أنّ هذه الآيات التي تتضمَّن التوحيد، وتنزيه الحقّ، والبعث، ورجوع الموجودات إليه -تعالى- قد نزلت للمتعمِّقين وذوي الفكر، يقول الإمام قدس سره: «**إعلم أنّ تفسير هذه السورة المباركة: سورة التوحيد، والآيات الأولى من سورة الحديد، أكبر من طاقة استيعاب أمثالنا، وأعظم من قدراتنا الفكرية والعقلية، والتطرّق إلى ذلك يكون خارجاً عن وظيفتنا. وعليه، فهل الإنصاف يسمح لأمثالي الولوج في تفسير ما أنزله الحقّ المتعالي على أشخاص متعمِّقين وعلماء محققّين؟**»[2].

واعتراف الإمام قدس سره بالعجز عن نيل حقائق هذه الآيات الكريمات، وأنّ لتفسيرها أرباباً، هم علماء محققّون - ويغلب على ظنّي أنّه أراد أهل البيت - في عين التصدّي لبيانها منه ومن أعلام آخرين، يفيد أنّ هناك

(١) الكليني، محمد بن يعقوب: أصول الكافي، تصحيح علي أكبر الغفاري، ط٣، طهران، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٨٨هـ، كتاب التوحيد، باب النسبة، ح٣.

(٢) الخميني، روح الله: الأربعون حديثاً، تعريب السيد محمد الغروي، بيروت، دار التعارف، ١٤١١هـ.ق/ ١٩٩١م، ص٥٩٠.

مستويين للتفسير، بل مستويات متفاوتة بنظر الإمام قدس سره، حيث من كلٍّ حسب وسعه وطاقته ومواهبه.

ثالثاً: الكشف عن المقاصد القرآنية:

قبل الدخول في مقاصد القرآن لا بدّ من الوقوف عند معنى التفسير عند الإمام قدس سره متجاوزين النقاش اللغوي الذي لا مزيد فائدة فيه. وبحسب الاصطلاح لدى المفسّرين والمشتغلين بعلوم القرآن، فإنّ هناك نظرتين إلى معنى التفسير:

المعنى الواسع للتفسير الذي يربطه بمختلف علوم القرآن. وعليه، فالتفسير هو الكشف عن المعنى القرآني بملاحظة الإطلاق والتقييد والعموم والخصوص والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول وغير ذلك ممّا يرتبط بعلوم القرآن، وهو ما أفاده الزركشي في كتابه (البرهان).

التفسير هو عملية الكشف عن مراد المولى من الكتاب، ولكن لا يمكن الوصول إلى هذا التحديد دون الوقوف على المقاصد العامّة للقرآن.

من هنا، اتّجه الإمام قدس سره مباشرة إلى المقاصد القرآنية، باعتبار أنّها الإطار الأصلح للكشف عن المعاني المُرادة من الآيات، وأعطى اهتماماً خاصّاً لهذا البحث. فلا تفسير بدون الكشف عن هذه المقاصد. وهي تعني ما يريد المولى إيصاله إلى الناس من خلال القرآن. ويطرح الإمام قدس سره طريقين لمعرفة هذه المقاصد: الأولى: هي العقل والبرهان، فالعقل قادر بالتحليل على الوصول إلى ذلك، خصوصاً عند معرفته لفلسفة الوحي وبعثة الأنبياء عليهم السلام.

والثانية: استنطاق القرآن نفسه. وهو يرجّح الطريق الثانية دون انتقاص من الأولى، حيث يقول قدس سره: «**يتحتّم أن نأخذ المقصود من تنزيل هذا الكتاب من كتاب الله نفسه، بغضّ النظر عن الجهات**

العقلية والبرهانية التي تعلّمنا المقصد، ذلك أنّ مصنّف الكتاب أعرف بمقصده»[١]. والعبارة الأخيرة تعلّل ترجيحه للطريقة الأولى.

وجملة هذه المقاصد أوردها الإمام قدس سره في كتابة الآداب المعنوية للصلاة:

- معرفة الله تعالى، بشؤونه الذاتية والأسماء والصفات والأفعال، للوصول إلى معرفة التوحيد الخالص، وهو المبدأ.
- معرفة كيفية السير والسلوك إليه تعالى، بتطهير النفس، وتهذيبها، وتحصيل سعادتها.
- معرفة أحوال الأنبياء عليهم السلام والأولياء والحكماء السالكين إلى الحقّ والوقوف على سيرتهم وقصصهم.
- بيان أحوال المعاندين والكافرين وما انتهوا إليه من عاقبة هلاكهم وسقوط دولهم. وفي هذا المقصد وما قبله معارف مهمّة تختزن تجارب الإنسانية وتستنهض المؤمنين للجهاد.
- بيان أحكام الشريعة وآدابها وسننها.
- بيان أحوال المعاد وبرهانيه (المعاد الجسماني و المعاد الروحاني)، وما يكون فيه من ثواب وعقاب وسعادة وشقاء.
- بيان كيفية الاحتجاج والاستدلال على المعارف الحقّة المشار إليها، وهو تعليم عقلي للناس على درجة عالية من الأهمّيّة[٢].

وبملاحظة هذه المقاصد، يتّضح التأثّر العرفاني الذي سلكه الإمام قدس سره، وقد قارب فيه كثيراً مَنْ سبقه من العرفاء، أمثال: صدر المتألّهين الشيرازي في تفسيره تفسير القرآن الكريم، وخصوصاً في كتابه (أسرار الآيات وأنوار البيّنات)، وكتابه (مفاتيح الغيب)، وقبله - أيضاً - الغزالي في كتابه (جواهر القرآن ودرره)[٣].

(١) الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، م.س، ص٣٣٤
(٢) انظر: الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، م.س، الباب الرابع، الفصل الثاني، ص٣٢٣.
(٣) انظر: م.ن، الفصلان الثاني والثالث.

من هنا يكمن السؤال التالي: هل هذه الرؤية قد توغلت في الغيب وابتعدت عن شؤون الحياة، كما قد يُشكِل بعضهم؟

والواقع أنّ الإمام الخميني قدس سره يعتقد أنّ الحياة إذا بُنيت على أساس التوحيد ومعارفه يمكن معها أن تُعالج الشؤون الإنسانية كافّة، بعيداً عن الظلم والفساد والأنانيات، وببركة الشريعة الإسلامية والمفاهيم الصحيحة، ليتمّ الجمع بين ثلاثية الشريعة والطريقة والحقيقة.

وبتعبير آخر: إنّ إصلاح الإنسان على طريق الشريعة والعقل والعرفان هو العملية التغييرية التي اضطلع بها الأنبياء عليهم السلام، ومن خلالها تصلح الحياة الإنسانية بكافّة جوانبها، الفردية والاجتماعية، ويتحقّق بنظر الإمام قدس سره معنى الاستخلاف الربّاني في الأرض.

رابعاً: النتائج التفسيرية في دائرة الاحتمال:

يؤكّد الإمام قدس سره على قناعته بأنّ ما يذكره بعنوان التفسير إنّما هو على سبيل الاحتمال الذي لا يرقى إلى يقين الحقيقة. وهذا الموقف من الإمام قدس سره له بُعده المعنوي الأساس من جهة، وهو الأدب مع الله -تعالى-، وله بعده المعرفي الموضوعي المرتكز على قاعدة أنّ صاحب الكتاب أعرف بمقاصده، وتالياً مَن عندهم علم الكتاب، أي النبي صلى الله عليه وآله وأهل البيت.

من هنا، يرى الإمام قدس سره أنّ تفسيره هو في واقعه تدبّر في إطار المقاصد العامّة للقرآن الكريم.

إذن، هو ليس تفسيراً «**مدرسياً، كما درجت عليه كتب التفاسير الرائجة، حيث يقول: هذا التفسير ليس على نحو الجزم، وليس أنّه هو المراد لا غير، إذ إنّ مثل ذلك هو من التفسير بالرأي. فما نعرضه هو ما يصل إليه نظرنا وما نفهمه، فنقوله على نحو الاحتمال**»[1].

ويترقّى الإمام قدس سره في موقفه، وفق نظرية المقاصد القرآنية إلى

(١) الخميني، روح الله: مقدّمة تفسير البسملة، ط١، بيروت، دار الهادي، ١٩٩٢م، ص١٣.

حدّ القول: إنّ الجهود التفسيرية التي بُذلت من المفسّرين المسلمين لم تُلامس حقيقة التفسير، بل انصبّت على جوانب بعيدة عن المقصد القرآني، من قبيل: الاختلاف في القراءات، وكون السورة مكّيّة أو مدنيّة، وأسباب النزول، والنكات البلاغية، ووجوه الإعجاز، في حين أنّ المقصد هو في جوهره المتمثّل بالهداية وتعليم سلوك طريق الإنسانية. إنّ مفسّرينا العظام - أيضاً - صرفوا عمدة همّهم في إحدى هذه الجهات أو أكثر، ولم يفتحوا باب التعليمات على الناس. وبعقيدتي لم يُكتَب إلى الآن التفسير لكتاب الله، لأنّ معنى التفسير على نحو كلّي هو أن يكون شارحاً لمقاصد الكتاب المفسَّر، ويكون جلّ نظر المفسِّر متوجّهاً إلى بيان منظور صاحب الكتاب الشريف، الذي هو بشهادة من الله تعالى كتاب الهداية والتعليم ونور طريق سلوك الإنسانية...»[١].

خامساً: رفض التفسير بالرأي:

يميِّز الإمام قدس سره بين عناوين ثلاثة: التفسير، والتفسير بالرأي، والاستفادة بالتدبّر. والعنوان الأخير لا صلة له بالتفسير، فضلاً عن التفسير بالرأي، ولا مانع منه، بل أمرنا الله تعالى به، لا بعنوان التفسير في قوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[٢].

ويوضِّح الإمام قدس سره معنى التفسير بالرأي على أنّه تطبيق الآيات القرآنية على الآراء الشخصية للمفسِّر ومعتقداته، وهذا التطبيق هو حمل قسري للآية، بلا شاهد ولا قرينة، على معنى خاصّ عند المفسِّر.

جاء عن النبي صلى الله عليه وآله: «**من قال في القرآن بغير علم، فليتبوّأ مقعده من النار**»[٣]. وعن الإمام علي عليه السلام: «**قال الله جلّ جلاله: ما آمن بي من**

(١) الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، م.س، ص٢٣٣.
(٢) محمد: ٢٤.
(٣) انظر: الحرّ العاملي، محمد بن الحسن: وسائل الشيعة، تحقيق ونشر مؤسّسة أهل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط٢، قم المقدّسة، مطبعة مهر، ١٤١٤هـ.ق، كتاب القضاء، الباب١٣ من أبواب صفات القاضي، ح٣٥، ص١٨٩.

فسّر برأيه كلامي»[١]، **«حيث ورد في الإسلام نهي صريح عن (التفسير بالرأي)، كأن يعمد أيّ كان إلى تلبيس آرائه على القرآن، فيطبّق المادّي أفكاره على بعض الآيات القرآنية، ليفسّر القرآن وفق رأيه، أو أن يعمد أحد أصحاب الآراء المعنوية والروحية إلى تأويل كلّ ما في القرآن الكريم ويرجعه إلى ما يعتقده هو»**[٢].

ومن هنا، تصبح جملة من المعارف واللطائف والاستفادات من القرآن والحديث الشريف - أيضاً - مشروعة، خصوصاً إذا توافرت لها شواهد نقلية وسمعية أو برهان عقلي. وهذا كلّه ليس من التفسير بالرأي.

ولا شكّ أنّ هذا التحديد لمساحة التفسير بالرأي يعطي حرّيّة أوسع لفهم القرآن والارتباط العقلي والروحي والاجتماعي به، ولا تعود مقولة النهي عن التفسير بالرأي معطِّلة لفهم القرآن، دون إلغائها بالمطلق - أيضاً - وفق ما أشار إليه قدس سره آنفاً.

ولذا يرى الإمام قدس سره أنّ الاستفادات الأخلاقية والإيمانية والعرفانية لا شأن لها بالتفسير أبداً ليُقال إنّها تفسير بالرأي، وذلك لأنّه سبق وحدّد معنى التفسير بأنّه: «**شرح مقاصد ذلك الكتاب**» وأنّ «**المفسّر يكون مفسِّراً حين يُفهِمنا المقصود من النزول**»[٣].

وكمثال على ذلك، يعرض لقصة موسى عليه السلام مع الخضر، حيث يقول: «**إذا ما استفاد الإنسان من التفكير والتدبّر في الآيات جلالَ مقام العلم وآداب سلوك المتعلّم مع المعلّم، ممّا قد يصل في الآيات المذكورة إلى عشرين أدباً، فأيّ صلة لذلك كلّه بالتفسير، فضلاً عن أن يكون تفسيراً برأي**»[٤].

(١) العاملي، وسائل الشيعة، م. س، كتاب القضاء، باب ١٣ من أبواب صفات القاضي، ح٢٨، ص١٨٦.
(٢) الخميني، مقدّمة تفسير البسملة، م.س، ص١٢-١٣.
(٣) الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، م.س، ص٣٣٣.
(٤) م.ن، ص٣٤٣.

سادساً: نقد الفهم الأُحادي للقرآن:

المقصود من النقد عند الإمام قدس سره هو عدم قبول أيّ بُعد من أبعاد القرآن على أنّه تمام التفسير والفهم، دون إلغاء أهمّيّة هذا البعد أو ذاك.

فهو - بداية - يقدّر عالياً كلّ جهد بذله المفسّرون، على اختلاف اتّجاهاتهم، اللغوية، والبلاغية، والفقهية، والاجتماعية، والعلمية، والعرفانية، وغيرها، ولكنّه يرى أنّ كلّ واحد منهم لم يَزِدْ على تفسير وجه من وجوه القرآن الكريم، ولم يكشف إلا عن صفحة من صفحاته، وفقاً لتخصّصه، واستناداً إلى الفنّ الذي كان بارزاً فيه، على أنّه ليس من المعلوم أنّ هذا الوجه قد تمّ بشكل كامل - أيضاً - .

ويعتقد الإمام قدس سره بعدم القدرة على الإحاطة بعلوم القرآن، ولذا تتحوَّل عملية الفهم والتفسير إلى عملية دائمة ومتنامية، ولا بدّ معها من الرجوع إلى تلميحات أهل البيت عليهم السلام، لأنّ هناك دائماً معنى وراء الفهم. «**إنّ علوم القرآن هي علوم أخرى وراء ما نفهمه. فنحن نفهم صورة من صور كتاب الله وصفحة من صفحاته، أمّا الباقي فنحتاج فيه إلى تفسير أهل العصمة المعلَّمين بتعليم رسول الله**»[1].

ويؤمن الإمام قدس سره بشمولية المعرفة القرآنية وخلودها، حيث يقول: «**القرآن مائدة ممتدّة من الأزل إلى الأبد، يستفيد منها جميع فئات البشر وطبقاتهم، وبمقدورهم ذلك، لكن غاية ما هناك أنّ كلّ فئة لها مسلك خاصّ تستند إليه في الاستفادة**»[2].

وهو ما لا يتّفق مع الفهم أحادي الجانب، استناداً إلى الثقافة المحدودة التي يملكها المفسّر في فهمه للآيات، كما هو الحال عند الفقيه، أو اللغوي، أو الفيلسوف، أو العارف. ويؤكّد الإمام قدس سره على هذه الحقيقة، ليدلّل على المقصد الأساس الذي يختزن كلّ الأبعاد المُشار إليها، وغيرها بقوله:

---

(١) الخميني، مقدّمة تفسير البسملة، م.س، ص١٢.
(٢) الخميني، صحيفة الإمام، م.س، ج١٩، ص١١٢.

«ليس القرآن كتاب طبّ، ولا كتاب فلسفة، ولا كتاب فقه، ولا كتاباً لسائر العلوم الأخرى... القرآن كتاب لبناء الإنسان، وإذا ما طالع إنسانٌ القرآن على نحو صحيح يجد أن كلّ ما هو موجود في القرآن موجود من خلال بعده الإلهي، وكلّ ما عرض له القرآن عرضه من الزاوية الألوهية. إنّ في القرآن كلّ شيء من خلال بعده الألوهي»[١]. وبه يكمن **«سوق جميع الموجودات - هنا - والإنسانية جمعاء صوب الله تبارك وتعالى»**[٢].

سابعاً: صلة أدعية أهل البيت عليهم السلام بتفسير القرآن:

ومن المداخل الهامّة لتفسير القرآن الكريم والوقوف على مقاصده عند الإمام قدس سره، مراجعة أدعية أهل البيت عليهم السلام، لأنّها تمثّل الكشف النبوي عن هذه المقاصد، وهي ميراث النبوّة الذي لا يفترق عن القرآن، كما في حديث الثقلين المتواتر عند المسلمين.

«إنّ الأدعية مليئة بالمعارف، وهي لسان القرآن، ومفسِّرة له بخصوص القضايا التي لا يصلها الآخرون»[٣]. **«فالقرآن والدعاء ليسا منفصلين، مثلما أنّ النبي صلى الله عليه وآله ليس منعزلاً عن القرآن»**[٤]. ويشير الإمام قدس سره بشكل خاصّ إلى بعض الأدعية المُفعمة بالعرفان، كالمناجاة الشعبانية، ودعاء كميل بن زياد المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام، ودعاء سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة، ودعاء السمات يوم الجمعة. ويلفت إلى خصوصية المناجاة الشعبانية التي جاء فيها أنّها كان يقرؤها أئمّة أهل البيت عليهم السلام كلّهم[٥]. فالإمام قدس سره يرى في مقاطع المناجاة الشعبانية تفسيراً لبعض الآيات الكريمات التي يصعب فهمها حتى على العلماء. فمثلاً: ما هو هذا الجبل الذي يقع عليه تجلّي الحقّ، في حين

(١) الخميني، صحيفة الإمام، م.س، ج٨، ص٤٣٧-٤٣٨.
(٢) م.ن.
(٣) الخميني، تفسير البسملة، م.س، ص١١٩.
(٤) م.ن.
(٥) م.ن، ص٧٥.

أنّه لا يقع لموسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾؟ هل هو حقّاً جبل الطور في سيناء؟ وما هو هذا التجلّي؟ وفي هذا الصدد يقول الإمام قدس سره: «**يحتمل أن يكون معنى الجبل هو أنانية موسى عليه السلام التي كانت هناك بقايا منها لدى موسى آنذاك**»، ثمّ يوضّح معنى الصعقة، في قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً﴾، فيقول: «**وبذلك التجلّي نفسه شُتّت تلك البقايا من الأنانية، فوصل موسى عليه السلام إلى مقام (الموت)**»[1]، ويقصد بالموت هنا الفناء عند العرفاء، ويسمّى - أيضاً - الموت الاختياري، وقد اشتهر في كلماتهم بقولهم: «**مُتْ قبل أن تموت**». لكنّ هذا يذكّرنا بمقطع من المناجاة الشعبانية، حيث يقول الإمام علي عليه السلام: «**إلهي واجعلني ممَّن ناديته فأجابك، ولاحظته فصعق لجلالك، فناجيته سرّاً وعمل لك جهراً... إلهي وألحقني بنور عزّك الأبهج، فأكون لك عارفاً وعن سواك منحرفاً...**»، فنفهم حينئذٍ معنى التجلّي، وكيف خرّ موسى عليه السلام صعقاً. وعلى هذا المنوال مواضع كثيرة في الدعاء يرى الإمام قدس سره أنّها تفسِّر لنا القرآن، وكلّها تدخل في المقاصد القرآنية التي أشرنا إليها في ما سبق.

إنّ مشروع التفسير الحقيقي للقرآن عند الإمام قدس سره هو ما كان يستند إلى المقاصد القرآنية ويستخدم كلّ المداخل التي ذكرها، خاصّة التراث العلمي والروحي لأهل البيت عليهم السلام، وكان هذا المشروع حلم الإمام قدس سره الذي لم يحقّقه، ولا يزال ينتظر.

(١) الخميني، تفسير البسملة، م.س، ص٦٢.